سيقتصر البحث، هنا، على ما آلت اليه العلاقة الثنائية فيما بين الدولتين العظميين، الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية، ومن ورائهما الكتلتان، الشرقية والغربية. ذلك ان هذا الجانب لعب، وما يزال يلعب، دوراً حاسماً، وربما الدور الأكثر حسماً، ليس فقط في صوغ التوجّه الفلسطيني الجديد، وانما في صوغ مظلة واسعة من التحوّلات وسياسات الاعتدال التي تكاد تغطي العالم بأسره.

لقد بات واضحاً ان السياسات، والعلاقات، الدولية قد دخلت في مرحلة جديدة. واذا كان هذا «التحوّل» قد تمّ في ظروف اشتداد حدّة التوتر الدولي، بحيث وصلت الى واحدة من أعلى قممها في العام ١٩٨٠/١٩٨١، فان صورة السياسات والعلاقات الدولية الجديدة، ذات الطبيعة الانفراجية، قد برزت، بوضوح، مع صعود الزعيم السوفياتي ميخائيل غورباتشيوف الى سدّة السلطة في الاتحاد السوفياتي. بل ان ذاك الصعود، الذي كان تعبيراً عن قوى جديدة تحمل توجّهات جديدة، اسهم، ربما أكثر من أي عامل آخر، في صوغ الانفراج الدولي[١٠]. ذلك الانفراج الذي ما فتىء ينمو، ويتوسّع، ويتجذّر، على نحو متواكب مع نمو وتوسّع وتجذّر الظاهرة الغورباتشيوفية. ويبدو ان هذه الموجة الجديدة من الانفراج، في علاقات الدولتين العملاقتين، هي الأقوى بين جميع الموجات الانفراجية المتقطعة، منذ الستينات[١١]، والى درجة احتمال كونها ذات قوة دافعة، كافية لايصال الامور نحو صيغة أرقى من الانفراج، ونعني بذلك «حالة الوفاق» في أقصى درجات التفاؤل، أو صيغة انفراجية قوية ذات ديمومة زمنية كبيرة في أقل درجات التشاؤم. وممّا لا شك فيه ان هجوم السلام والاعتدال والواقعية الذي رفعت الغورباتشيوفية لواءه قد بدأ، منذ ما يزيد على العام، في اعطاء ثماره، بحيث تجاوبت معه الولايات المتحدة الاميركية التي سبق ان رفعت ـ مع صعود الرئيس رونالد ريغان ـ لواء الظاهرة الريغانية الايديولوجية المتطرّفة، التي اتّسمت بهجوم واسع أدّى الى ايصال التوتر الدولي الى احدى أعلى قممه في العام ١٩٨١. وعند هذه النقطة، يطفو على السطح السؤال: لكن لماذا جاءت هذه المرحلة الانفراجية العارمة؟

لا ريب في ان تلك الموجة ترتبط بأسباب تتعلق بالرغبات، والتوجّهات، والمبادىء، ذات الطبيعة الانفراجية لدى هذا الزعيم أو الرئيس في الدولتين العظميين، أو لدى بعض الشرائح القيادية الحاكمة في الولايات المتحدة الاميركية، أو الاتحاد السوفياتي، أو غيرهما من دول العالم. غير ان السبب الأهمّ، في نظر غالبية المراقبين المتخصصين، يتلخّص في حقيقة الارهاق والنزيف الذي أصاب أعصاب وميزانيات القادة والدول والشعوب، على امتداد الكرة الأرضية، وخصوصاً في الدولتين العظميين، جرّاء التوتر الدولي الذي غلب على معظم السنوات، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وجرّاء المخاطر الحقيقية التي باتت تتهدّد البشرية، في ظل التقدّم الحربي التكنولوجي (عصر الصواريخ النووية) الذي بات قادراً على تدمير العالم في سويعات، وجرّاء المشاكل الاقتصادية الخطيرة التي لم يسلم منها كلا الاقتصادين، السوفياتي والاميركي.

وقد جعل هذا الارهاب وذاك النزيف جميع «جمال المحامل» الايديولوجية تنوء بأحمالها وتنخّ تحت وطأتها وتبرك. ومن هنا، كان لا بدّ من بدء نهاية «عصر الايديولوجيات»، وبدء نهاية عصر «أنبياء الايديولوجيا»، وبدء نهاية عصر «الخطاب الايديولوجي» في العلاقات بين الدولتين العظميين، أو بين كل منهما ودول الكتلة المقابلة، أو بين دول المعسكرين المتواجهين. وكان من الطبيعي ان يفسح ذلك في المجال واسعاً لبدء عصر السياسات العملية، الواقعية، البراغماتية، وبالتالي بدء عصر «أنبياء السياسة»، وبدء عصر الخطاب السياسي البراغماتي ـ العملي ـ الواقعي. وفي هذا المناخ، انبثقت الظاهرة الغورباتشيوفية، ونمت، وترعرعت، وتعزّزت، فارضة ما يشبه العودة الى السياسة